سُمْرَةُ الحَجَلِ

قصص

اسم الكتاب: سُمْرَةُ الحَجَل
التأليف: خالد محزري
نوع العمل: قصص
مراجعة لغوية: سواح للخدمات عبر الإنترنت
إخراج فني: عمرو سالم سواح
رقم الإيداع: 2020/ 14435
الترقيم الدولي: 978-977-835-204-7
الناشر: زحمة كتاب للنشر والتوزيع
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر
Facebook
Email za7ma-kotab@hotmail.com
Tel 002 01205100596
002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار زحمة كتاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل
من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

سُمْرَةُ الْحَجَل

نجوى... وأشياء أخرى

قصص

خالد محزري

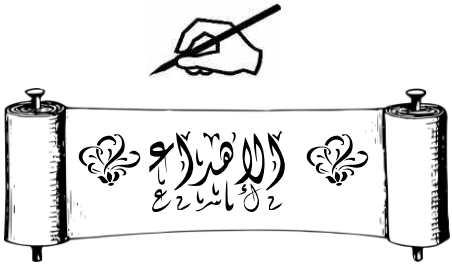

إلى نقطة صنعت تلك التفاصيل

إلى الأشياء التي خبأتني للمجاز

إلى صاحب الأنا الغائبة، والوقفة الحاضرة

إلى الدكتور محمد حمود حبيبي.. مجموعة إنسان أكتب لك هذا الإهداء

ما زالت أفعالك بستانا، وكلماتك الصادقة قبسًا أحتفظ بهما في رفوف الذاكرة.

خالد مخزري

فهرس

الإهداء ٥

أساس ٩

طوارئ! ١٤

تشهد! ٢٨

المقعد رقم (٢١١) ٣٩

مناخ! ٥٠

قارئة وقارئة! ٥٩

مربع أخير! ٧٨

حطب! ٩٢

صفحتان! ١١٠

سُمْرَة الحَجَل ١٢٣

أساس

أساس

تنهد عدة مرات دون أن يتوقف، ارتد مرارًا عن إفشاء ما يكنّه من مشاعرَ سيَّالة، وأدرك أن التلميح ليس حلًّا مجديًا، أعلن استسلامه لنتوءات الزمن، ازدادت رغبته في الحديث معها، هذا التبدل المفاجئ تمدد كالعشب الباهت في حدائق المدن المهملة، تأخر مطر السماء عليها ونست البَلَديّة أن تنعشها برذاذها الصناعي، ومنذ آخر ضحكة لها وأوردته متهتكة، ظل لاجئًا إلى ذاكرته، أسيرًا يتردد على أماكنها التي جمعته بها تقتاده أشواقه كسرداب.

بدا عليه استغرابٌ كبيرٌ منذ يوم فائت قضاه في السرير الأبيض عجز الطبيب عن تشخيصه، وقبل أن يغادر المستشفى فك أزار قميصه الأزرق ومد يده إلى جيبه الأيمن ليخرج هاتفه، وهو يشعر باستقرارٍ باردٍ في مشاعره وانخفاض درجة حرارته وصداع قد زال، وقد قرأ الطبيب في عينيه أرقًا طويلًا.

تبادل الحديث معها على الرغم من إحساسه بغصة آتية توحي بفوهة مرتقبة، مضت الدقائق سريعًا، تنحنح وهو يتأمل لينضح عليها حنينه الذي نفذ إلى قلبها كأعواد الثقاب، ساد الصمت وتهدج الحديث، وقد ترجحت في دهشة بين الشك واليقين، ثم حاولت النفاذ بلباقة إلى ما وراء انكساراته

الباهتة التي مرق منها وما نثره في مساحاته الضئيلة، لم يعجبها حديثه الفاتر كأن شيئًا لم يحدث.

عاد نداؤها لسبر أغواره، محاولة اكتشاف الفجوة لفتح الدروب المسدودة، تدارك نفسه على مضض، وبات منكبًّا على هاتفه وعيناه الناعستان يكاد يبتلعهما السهاد، وخفت وهج المواجهة وبحركاتها المتراكمة نصبت له إقامة جبرية ترسل زفيرها الغائم بين فينة وأخرى في خبيئة نرجسية، تلكزه بهدوئها الحائر كإشارة ضوئية حتى تبقى ظلًّا لا يفارقه، تنسل منه لتزهر بين شراينه.

لفلفت فزعها وبحثت عن ديباجة لتكسو بها نحت قلبه قبل أن تنجلي ندباته في دروب العمر، وأردفت منقبة عن أساس يضمد كنفها دون عويل، أغلقت نوافذها السوداء، وبات ينعى نبأ وحدته في وجوه المارة من نافذة سيارته خشية الاختناق.

طوارئ!

طوارئ!

عاد وليد من عمله المسائي، الساعة تقترب من الواحدة ليلًا، ركن مجموعة من الكتب على رف مكتبته، أشعل سيجارته الإلكترونية.

***

تمدد بلحظة استرخاء، تلاشى الإرهاق تمامًا، لكنّ غصةً خانقةً حبست أنفاسه، تغلغل الظلام في خلايا جسمه، حل السكون على مشاعره، أضناه الشوق، تأهب لاستقبال زائره

الليلي، اقتحمت طيفه فجأة، غيوم تعج السماء خلسة، ازداد اسوداد الليل، إبريق القهوة يرتعش على مواقد الفرن.

في صمتٍ ظل يرتشف قهوته، كسر أبو نوره بصوته الشجي رتابة الليل في روتين يتصاعد، في العادة يمضي سريعًا، هذا الليل بحر الويلات تظهر الآهات فيكتمها قسرًا، بدأت أنوار الطرقات تتلاشى، والرغبات تقتاده إلى باطن الحي القديم.

***

في قلبه شوق لا يقتله الرصاص، فحيح تنفثه وردة ذابلة، نداء خفي لا يجرؤ على التوقف، عبر دهاليز الحي القديم بسيارته الفارهة سار كمخمور، انتهى به الطريق بعد منعطفٍ خطير، ترجل من سيارته سيرًا على قدميه، مد بصره يمنيًا وشمالًا متفقدًا خطوات المارة، رصد طفلًا على مسافة بعيدة يجوب الأزقة، بادره بسؤال عن الشايب الأقرع.

فقال له: إن وجدته، فلتقرأ عليه السلام من صديقه رشيد.

فأردفه بعينين محدقتين: بالطبع سمعت عنه، ومن تلمظ لقافة الأطفال نجا.

***

واصل تمشيط الطريق بحذر، وببطء شديد سار نحو المنزل البني، والليل يلملم بقاياه استعدادًا للرحيل، كان الخوف يسيطر عليه، مد بصره مرة أخرى شاخصًا إلى السماء، وما زالت أنفاسه على صفيحٍ ساخن، والضجيج يشق سكون الحي وهو يشاهد ويراقب في طريقه، وعابر سبيل هناك يلقي عليه التحية، ولحظة قلق تتأرجح في الزقاق المؤدي إلى منزل هديل، حبات مطر تتساقط، خيال يلوح ثم يختفي، نظر إلى الوراء، لا أثر يظهر في العتمة، كانت المسافة تطول أكثر وقرع قدميه المتوغلتين في الطين مرعب، سمع هسيس بكاءٍ خافت، عاد الخوف يتسربل مجددًا، حبس أنفاسه وثقلت خطاه، إنها لعبة مرمية في القمامة، أكمل طريقه

وهو يتحاشى الأصوات، انزلقت قدمه بغتة، باتت دروب الطين لزجة، رن هاتفه فارتدَّ صدى نغمته بين جدران الحي القديم، وكعادة الليل المسجى يبعث الحزن والألم في مفاصل الجسم.

***

بدأ يتجشم عناء المخاطرة. ماذا عليه أن يفعل؟ لكن الوقت يمتد، واجه في طريقه أربعة شبان يحملون (كيرما)، قرأ عليهم السلام، وأتبعه بسؤال: أين دكان العجوز مريم بائعة البخور يا شباب؟

ثم صحح له أحدهم السؤال: هل تقصد الداية جمعة؟

فقال له آخر: في هذا الحي ستجد كل شيء.

ضحك ثم سار بخطوات متهدجة.

وفي صمت يحدث نفسه: كم مرة تلون وجهك يا وليد؟ وكم مرة نجوت من الخطر؟ وكم مرة ابتسمت؟ وكم مرة امتعضت؟ فمتى ستتوب عن هذا الحي؟!

***

اجتاز آخر منعطفات الحي بشعورٍ يملؤه الفوز بالسعادة، فبدأ يدندن مع نفسه، إذ في أعقابه صافرات الشرطة تدوي في منتصف الحي وأصوات عالية، اكتشفوا أن لصًّا داخل الحي.

تحول بعض أهالي الحي إلى إحداث مظاهرة صوتية ومقاومة من فرط صافرات الشرطة، وبصوتٍ واحد: (لا غريب يلج هذا الحي. تبًّا له! تبًّا له!).

***

اندفع وليد يبحث معهم، سدد بصره حول مسجد الحارة، أشعل كشاف هاتفه المحمول ليجد لصًّا خلف برَّادة الماء لاهثًا من الخوف، حثه على الجواب بصوت هامس، لكنه أقسم له على أنه لم يسرق شيئًا، رواغه اللص لينفد بجلده.

من فورة الخوف قضم وليد أظافره، ولبد العرق وجهه، وجف ريقه فأشاحه بصنبور الماء، هدأ من روعته خارج أسوار المسجد، سار على ضوء خافت في الحي المبعثر، وجوه مغبرة تحدق في المارة، كان يتطلع إليها قبل أن تدهشه حتى تلاشى كل شيء، رفع عينيه إلى السماء ولم ينطق بشيء، كنظرة شكر أحس بأنه هبط من سفر المعركة.

***

في آخر الحي، يقع منزل هديل المخطط بالبني والأبيض، وبجواره جنان وارفة، وصرير ريح تتمايل على راحتيها أغصان المانجو المثقلة بالفاكهة، وأوراق الليمون تنساب في

أرجاء المكان، تسللت رائحتها بخفة إلى أنفاسه، فتح عينيه متماوجًا على سلامته، وبابتسامة مرعوبة أدرك أن تسلق السور شاق، لأن الزجاج مغروس في أعلاه. وبرشاقة تسلل على شجرة نيم، هبط مجرحًا زاهدًا في ضمادها راجيًا حنانها متعطشًا إلى حبق أنفاسها، تغاضى عن جراحه البسيطة والرضوض التي ألمَّت به. بلَّله الطين وبقايا المطر، عفنت ملابسه، ثوبه الأبيض اتسخ، على وقعه تطاير الدجاج مبقبقًا، تمدَّدَ بحذر على الرغم من الخطر المحدق به، سمع صوتًا لم يرد عليه، ثم أشارت هديل إلى كلمة السر وهي تتلوى بكشاف خلف المنزل على سِدرة عجوز، لتنتظره بتؤدة تحتها.

وفي صمتٍ مضطربٍ قالت: ماذا لو عرف أحد؟ لقد أطفأت كاميرا المنزل. لا لا، لن يعيد أحد الوقت، مستحيل أن يعرف أحد. نعم نعم، قد رقدوا غارقين في سباتهم.

(فرغ صبرها)

تحت السدرة، تلاقت الوجوه في وقت كهذا مذهولةً بالنشوة، وبرِقة زائدة احتضنت حبيبها، من شدة عناقه نفذ عطره عميقًا كهفهافة غجرية، احتوته كما تحتوي الأرض المطر ولم تبالِ بهندامه المتسخ.

***

لم تبدأ الحديث حتى انخرطت في بكاء مرير، وعيناها محمرتان من فرط البكاء. حاول وليد ثنيها عن البكاء، تتطاول نشجيها المنغم، أوقف إيقاعه باحتضانها حتى لا يسري الصوت، فقد ألهجته وأمطرته عتابًا دافئًا.

رحماك يا رب! هذا حبيب العمر استولى على قلبي وعلى جسمي وبصري، فلا تخلخله عني...

ثم باغتته بسؤال: متى ستدلف من الباب يا وليد؟

وأردفت بآخر: متى تقودك خطواتك الموارية إلى باب غرفتي تحت إضاءة خافتة وعبق البخور يفعم المكان ونحملق في التلفاز؟

ثم تفرَّسَت في وجهه مليًّا، شفتاه منقبضتان وفمه فاغر!

فقالت بنبرة حزينة: طال صبري وتراءى لي اليأس، ابتسامتي واهنة، أخبئ في جوفي حبًّا ينمو، يتعالى صوته حتى أدمنت المسكنات... (لم تلبث حتى أغمي عليها!)

حالة طوارئ لم تكن في موعدها!

بللها من بركة الماء بجوار السدرة، مسح وجهها.

وبينما وعيها يعود، نطق وليد: أريدك، لكن ظروفي لا تساعدني حتى أُسعِدك.

مستغيثًا بلسان ضعيف، غض وليد نظره عن قوامها الممشوق، وهي مدبرة قد لفَّت نفسها صوب المنزل تعتصر

حسرة وتتمزق ألمًا.

أدار ظهره مغادرًا وقد تملكه الإحباط، وبنظرة عين اجتازت حاجزَ اللحظة، أدرك أنَّ لا جدوى من موقفه الرمادي، وقد بدت أمامه سلسلة من الأبواب المكتظة، وببطء شديد قفز من على السور بدموع مبتلة، وبخطى مخضلة أدرك خطورة ما يفعله كطوارئ تُضمِّد أشواقه مؤقتًا.

تمتم بحروف تاهَت مخارجها، عاد إلى منزله ببؤسٍ وعناءٍ في ليلةٍ استثنائية، التهمَه الصمت والحزن مجددًا تحت السدرة.

تشهد!

تشهد!

كشف بجلاء عن رؤية غرامه، شعور لم يحدث بإرادته!

فماذا يصنع في موقف تراكمَ وتشكل كواقعة؟ لا يدري.

كيف حدث؟ أيضًا لا يدري!

إن الحب يأتي بعد الاطمئنان وهو لم يطمئن بعد، الاطمئنان يأتي منها، راوغته برتمها الدبلوماسي، غرق في مأزق الحوار، تصبب عرقًا، كانت ملامحها الغجرية تُؤمئ

بنهاية قبل البداية، كل شيء حوله يرجف، بدأ يتمتم بسلسلة من المشاعر المجهضة والإحباطات المتوالية والانكسارات الكبرى.

وفي جزعٍ هائلٍ انتفضت، كأنما تمتد من صدرٍ ضاق بالدنيا ذرعًا، وقد غاص قلبها لينكب، رادارها يؤنب ضميره الخافض، وبات يلوذ إلى مرفأ في حمأة الحجرِ المخضب بالعزلة، ظل على أرصفة الشوارع يبحث عن مظلة ونظارة شمسية، تجمَّدتْ سعادته المؤقتة، مهدتْ لحُزنٍ مزمن، دفن شظايا أشواقه لتفيض في أهْبِيَة الفيافي، ولأن وجهها بدا كما لو كان يُوجَّه إليه الكلام.

أزف الوقت في منتصف الطريق، توزع شعاعها في الاتجاهات جميعها، تصاعد ذلك الشيء الغريب في لحظة، مر بخياله ألف احتمال، انتهى الأمر.

وبات يكتب تشهُّدَه الأخير عائدًا إلى رسائله كنازحٍ على هامش الذكريات:

"حاولت سبق الأحداث، وأنا أستمع طوال الوقت إلى ما يُمليه قلبي، لا أعرف كيف نشأ هذا العشق، لكن يبدو واضحًا أن كل شيءٍ على ما يرام، وبلهفةٍ متزايدة، وعلى الرغم من كل ما حدث، ما زلت متوجسًا من استئناف المحاولات

معك، تسرب الخوف وتزايد القلق. ومنذ أن وقعت الواقعة، طفت مُضحِّيًا وراء مشاعري، أستجدي الحلول، أبحث عن هدنة، ألتقط أنفاسي، لكن وجدت نفسي أمامك في منتزهٍ مفتوحٍ لا أحد سوانا فيه، وبرهبة مذهولة يُستَحال الوصول إليك، في لحظةٍ صادمةٍ اشتدت قيودك، سكونٌ خالٍ من الحياة، سكونٌ أقرب إلى العدم، فلماذا كل شيءٍ تحول إلى ذعر؟".

نواف

"عَوَتْ صفارة الإنذار مبكرًا، قبرت أشجاني المرهفة في فراغك الباهت، خرجت من نهاري الأبدي إلى حد التلاشي، انكسر عنفوان شموخي، ذاكرتك بدأتْ تتآكل، التهمتُ شغفَك بأعواد الكبريت، ألهبتُ أحشاءَك الباطنة، اكتنزتُ أنوثتي الخالقة، قمعتُ شهد رحيقك حتى كبَّت رغبات جسمك نحو المقصلة، ثم أفرغتُ نار خيالي الحارق حتى جاء مخاض أسئلتي التي تتشكل كجنين ينمو إثباتًا لوجوده. فما هو المبرر من رسائلك؟".

رنا

"اندلقَ ما تبقى من مشاعر بقلبي المُعنَّى، وسكبت تباريح الصبابة في متاهة الملح، تعرجت أوردتي التي تنمو في صدري ارتحالًا إلى فوهة الصمت، اندهشت أقتات من حروفك الطوى، وربما أغادر المشهد كلقطةٍ بطيئة، رحلت في الاتجاه المعاكس، امتد شتاتك إلى شهور وشهور، لم أكن أتوقع على الإطلاق أن أجد الطريق إلى قلبك مسدودًا. كان كل ما دار بخلدي هو أن أعثر على مساحات خضراء ممتدة، وربما أيضًا اهتمامًا شحيحًا ينساب شيئًا فشيئًا، لكن لم ألبث حتى اصطدمتُ بأسوارك العالية وأشعتك الحارقة".

نواف

"كنت أظن أنك ستحبني بعفويتي، حتى وأنا مستفزة، حتى وأنا غارقة في تماسكي كمكعبات السكر ربما تذوب يومًا ما، والمحاربون لا يتراجعون. خُذ نفسًا عميقًا وعُد إن كنتُ في نظرك شيئًا، فكل إنسان يحمل بداخله كثيرًا من مشاكسات الطفولة لأنه عفويٌّ ليس إلا، ومن يريدك لا يأخذ نصفك بل يُكمِله، ولا أحد يخاطر ليرمي نفسه في بئر، فشاركني الظلام إن بحثت عن السعادة، فشعوري بالأمان معك تبكيه الظروف".

رنا

"في لحظةٍ ما، أصبح الاتجاه مُجبِرًا على الابتعاد، تناثر الشوق مثل زجاجة كسرُها لن يجبَر، فضَّلتُ المحافظة على صورتك في مُخيِّلَتي، التمست لك سبعين عذرًا، لكن هذه المرة الوجع في الروح، وهذا ليس دليلًا على أنني لا أريدك، لكنني عزفت لإنشاء حدود وخطوط حمراء في تعاملي معك، ومن أبسط حقوقك أن تعيشي كما تريدين، وإن كنت في نظري مستفزة على الرغم من براءة تصرُّفي، ولن أفترض شيئًا لم تبوحي به، ولا تنسَيْ أن استمرار هذا الشح من الاهتمام يُضمِّد ولو قليلًا من الوجع، فلم تعد أعشاب أمي تخفف حدته فأحسن الظن".

نواف

"كلما ربضت على خاصرة النسيان وأوشكت روحك على الانطفاء، سأعيدك بتوشيحة متصوفة من الهدى في حياءٍ آسر، لكن إن لم يرتَحْ قلبك فاذهب إلى حيثما ترغب، كن جزءًا من روحٍ تشبهك وإن كنت وحدك، فالإحساس الذي يلامس شغفك تحدده الأفعال، وليس الكلمات".

رنا

وقبل أن تتوهَ في طريقه المعبد بالحب، كبحت غجريتها المهفهفة، وباتت في حصانةٍ كبيوت العنكبوت، أبعدته ١٠٠٠ مرة وقرَّبته ١٠٠٠ مرة.

المقعد رقم (٢١١)

المقعد رقم (٢١١)

كان مولعًا بها، يرسم صورتها في المقهى.

ترتشف قهوتها، تقرأ كتابها، والمسافرون معلقون في هواتفهم النقالة.

إحساس لم يشاركها فيه أحد، وحين مدَّ بصره رأى نفسه مُلزَمًا بمراقبة الآخرين، وبعد أن شدته ضحكاتها الطفولية أحس أن روحه الحالمة تفوح بالهوى.

كانت لها ضحكة ليست ككل الضحكات، ضحكة لا بد أن تُحنَّط، لكنها محنطة في قلبه كالمومياء، فهز رأسه وبحسرة تنهَّد. لا يدري، كيف سيحفل بها وهي لم تقدم له سوى تأنيب نفسه؟! وبدت الصدمة واضحة على ملامحه الحادة.

***

يرتب أفكاره، يهتدي بوحيها، يستجدي طيفها.

عجن صلصاله، تشكلت ملامحها الغجرية تتطاير في أجوائه الغائمة، تدفقت ترانيمه بلا إرادة، امتدت جرأته، أزاح الكمامة عن فمه، ثم ترك مسافةً آمنةً سرعان ما بددها، ولم

يلبث طويلًا حتى أوقظها من أضغاثها ينشد رحيقها.

صرخت حتى شعر بصَمَم يطرق أذنيه، سلبت قدرته على الكلام. ثم استلقى خائبًا منتظرًا القطار القادم.

غزلت خيوط الجاذبية، وخلف لِثامها على أحر من الجمر بات ينتظر الخريف كي يُسدِل عن رحيل أوراقه الجاثمة على صدره، فنظراتها الذابلة كنار تقود إلى مشنقة الاكتئاب. هناك كلام كان لا بد أن يقوله لها، لا بد أن تعرف على الأقل الشيء المهم، المهم أن تعرف كل شيء!

***

نظر إلى الساعة.

كانت تشير إلى الحادية عشرة إلا دقيقة مساء.

وعلى طريقته تخلى عن وقاره العظيم للحظة، وانطلق يجري وعودُه على ظهره، لوحته تُفلِت منه وألوانه تتناثر، يستدير إليها، وبقفزةٍ هائلةٍ وضع قدمه في عربة القطار.

نظرت إليه مذهولةً ربما أكثر بكثير من ذهولها حين رسمها.

جلس في المقعد رقم (٢١٢)، دهشت من رقم مقعدها (٢١٠)، أحست بشيءٍ من الرعب والخجل!

قال لها بصوت خفيض:

بات لزامًا أن أتنحَّى عن مقعدي، فقد حملت ذكراكِ الألم في قاعٍ لا قعر له، ولا عزاء لي كلاجئ أفر من ذاكرتي ولوحاتي المخضبة، فنحيب القلب يتجذر، ولا صوت يُسمَع في أحشائي، أحتضر من رجع الصدى. فكم لعبت معك دون عمد؟ نعم، دون عمد!

ردت عليه بعتب:

أهكذا ترتقي الكلماتُ كما يفعل كُتَّاب الروايات؟! أين جبر الخواطر؟ أفزعتني دون حوار مسبق حتى أكاد أفقد أعصابي، تسللت بهدوء ومرَقْت بريشتك الفاتنة، ولن تروي وجدك بوهج ألوانك المفعمة بالأحلام الوردية، فريشتك الناعمة حادة ومدادها جارح، على الرغم من تساؤلاتي الخضراء في هذا المساء، فقد تجدَّدت فيَّ رغبة العطاء كحقول القمح، وتوغلت في شراييني، وفي سكونك احتمال، فلوحتك في المقعد رقم (٢١١) تفوح حيادًا وأمانًا، وعلى سواحل الاندفاع أهتفُ لك بظِل الكوخ لنعجن الصلصال قبل أن يأفل القمر.

وأردفت:

ألمحُ فيك خيبة أمل مُعشعِشَة بعدما غرقت في تضاريسي، اصطفيتك كفراشة على ضوء البنفسج كشهوة الفردوس، وسينمو قدري بمشيئة، كُن كجنينٍ من رحم الأمل.

أعادت السؤال مجددًا وبصوتٍ أعلى، فلم يأتِها سوى الصمت!

سكت، ثم قال بصوتٍ هامس:

خفِّفي بلوة الأسئلة، ما يربو على ساعة ونصف ولم تتوقفي عن محاصرتي!

وفي سَكِينة لم تكن مقطوعة، أدرك أنَّ انفتاحها في الحديث سيتبعه مواويل، فهو رسام وأديب، وهي قارئة منفتحة على عالمها ليس إلا.

قال لها بخيبةٍ عميقة:

ما زالت تخونني المقاعد المتحركة، كلما نهضت ازدادت حيرتي حتى أصبحتُ أخشى صالات السفر، فهي تُخفي من استُرِق منهم الإلهام، وخلف الأقنعة الضاحكة دائمًا أصواتٌ متعددة، وعلى الرغم من جاذبيتها، فإنها تقطع الإرسال، ولا فرق بين الغرور والمسافات والحواجز وأشياء

كثيرة تشبه المقعد رقم (٢١١).

***

اقتربت وجهتُها، اكتملت لوحته الآسرة، وبنرجسيةٍ اعتذرت عن الاحتفاظ بها، فبدأت الرحلة موحشة، فراح يضمد صدَّها، ويتساءل سرًّا عن عزوفها الرمادي. وبين رياح الشك وغيمة اليقين، بات لا يدري إذا ما كان عليه الانتظار أو الاستسلام. وبرغبةٍ صارمة، مرَّرَ سلوكها دون ردة فعل كردة فعل، وبدأ يميل إلى الصمت، فظمأُ مشاعره يفتقد حضورها الخمري في المحطة القادمة. وعلى فجر صادق

منذ ذلك الوقت، وهو لا يزال مسافرًا يحاول اكتشاف الطريق، لم يستظل بغجريتها حتى في ساحة العزلة، يمشي كَلِصٍّ، يرافقه ظله الأخرس، وبخته اليتيم، والمقعد رقم (٢١١).

مناخ!

مناخ!

طافَ فيصل في مواقع الإنترنت يبحث عن بعض الكتب، عانقه الملل طويلًا، وراح يتطلع في صور الأصدقاء، في عصف الأيام تسلَّقت ذاكرته كعطر الياسمين حتى تحميه من عنف الزمن. يتأجج الطقس في الخارج، السماء تبكي، ورذاذها يفحُّ في وجهه، وقد شاخ حظه كغُرابٍ يلاحقه من مدينة إلى أخرى طوال عشر سنوات مضَت، تسقط أحلامه مخضبة كساعة مائية، اغتسل من تعاسة بخته، ولم يبقَ سوى أن يهديه كفنه في هذه الأرض. أخذ حقيبته الصغيرة، وقد بلل

المطر ثيابه، غادر المنزل على أنغام فيروزية، استقل سيارته وسرعان ما ارتجَّ الإطار الخلفي، باغتته زجاجة متشظية، توقف قليلًا، استبدله بآخر.

يدرك بُعد المكتبة، بدا الطريق ضبابيًّا، تخطى السيارات بسرعة معتدلة. يتسع الطريق إلى المكتبة في شقاءِ الحفر، وروحه الرهيفة تنثر الأمل في حقول المساكين، وبنظرةٍ مباغتةٍ رأى أطفالًا ينحتون دمى الطين على الطريق، فخفض سرعة سيارته، أومأ إلى أحدهم، فتح محفظته، منحه ما تيسر من المال واشترى من آخر زجاجة ماء.

***

اقترب من المكتبة، السماء صافية، نزل من سيارته بخطوات متثاقلة، قبل أن يدخل طلب منه العامل أن يرتدي كمامة، أدار ظهره إلى الخلف، وقعت عيناه على دفتر بنفسجي اللون وقد بلَّلَه المطر، وقف بين لفيفٍ من البشر من جنسيات مختلفة منتظرًا قياس درجة حرارته، استثمر اللحظة وأخذ يقرأ بصمت، اعترف بينه وبين نفسه أنه فضولي جذبه الخط، وكم تغلغل بين السطور!

أثار اهتمامه، وانبرى يقرأ في مفكرتها: أنا شذى ابنة العشرينيات، أقرأ كثيرًا وأكتب قليلًا، أرحل إلى الأعماق، أشرد هنا من هذه الروح الحالمة، أعزف على أوتار قلبٍ قد ظنى، الحزن ينتعل دروبي، وصوته يتكور ككرة الثلج. هناك

حيث أنا فتاة تغوص ولا تنتمي إلى الشواطئ، يا طاقة الزهر هاتي رحيقك، اسقي أحلامي العطشى. هَمسي يناغي الغيوم الحبلى، في سلوى العناد أزف الرحيل، أعود بالمواجع على حِمَم الصمت...

١٥/ ١/ ٢٠١٩ شذى

****

الزمن لا يداوي الجروح، وما هو إلا نوتة موسيقى ترتل غيابك المتساقط عند بابي، ترسم طيف ملامحك الرمادية على الرمل، أكتبك في مفكرتي، وكم أخاف أن تُجاوِر الرياح ثقب ذاكرتي!

أقدام المارة تتآمر على هدوء القاع، وحده الصدى أتى ليحصي كل الكرات التي مرت بجوار الباب، أقدر اعترافك والانتظار في أعماق الحشا. يسلب نومي، يُؤرِّق جفني، فلا تغرس شعورًا ثم تتوقف عن الخُطا في انتظار الخريف، كل الذين دنَوْا من قلبي ثم تولَّوْا إلى الظل يعيشون في مداري أحاسيسَهم النرجسية، ولياليهم الرومانسية تتطاير كشظايا، فلا تؤجل حب اليوم إلى الغد...

٢٠/ ٥/ ٢٠٢٠ شذى

***

أخذ يقلب ويقلب مفكرة أنثى قارئة بشوق ووهج، لاكتشاف مفاتن ومكامن قوة هذه الأنثى.

***

فتش وعاث بين ثنايا مفكرتها وقد عصف به الإعجاب المُعتَّق، وعبير كلماتها في فضاء روحه إكسير، ونظراته في آثار خطها ينتشي مع شفق المساء.

مضى في هوى المفكرة غارقًا في قراءتها، انفرد بنفسه قليلًا، ولم يدُم طويلًا حتى أعلن أحد الموظفين عبر "ميكرفون" المكتبة عن فقدان دفترٍ بنفسجيّ، فدب بتسليمه وقد تخدرت قدماه، ثم سار بخطوات بطيئة ثابتة، ثم رأى فتاة

تجلس وقد بدأت علامات التوتر عليها تمطُّ شفتيها، تقوَّسَ حاجباها، هكذا بدأ يتفشى الأسى على ملامحها الغجرية، ترتدي ثوبًا تركوازيًّا، تجلس على كرسي خشبي، تنظر إلى شاشة هاتفها، أمسكت وردة الجوري وبدأت تقطف أوراقها، ورقةً تلو الأخرى. وبحزنٍ جاثمٍ على صدرها، وبتوجسٍ تحدث نفسها: سيعود دفتري، لا لن يعود، كلَّا سيعود، لا لا لن يعود، سيعود...

تطلَّع في ملامحها الفاتنة، في عينيها دمع شفيف، في حنجرتها غصة وحيرة ممزوجة بقشعريرة. ساد المكان صمت كثيف، ناولها دفترها، وبيد مرتعشة حاولت إدخاله في شنطتها. لمحت ابتسامته الشمقاء وما زال يغطيها عرق غزير،

ساحت من رموشها رسمة الكحلة، وخفت أحمر الشفاه، نهضت بهدوء، لكن عينيها تبحثان عن شيء، شكرته، وبخطوات متهدجة سارت...

كان كل ما اكتنزه في ذاكرته هو ما خطته في صفحتها الأخيرة:

"كيف نقابل أحبابنا دون خوف؟ كيف نعبر الباب في اتساق القمر والإشارات والكاميرات ترصد قلوب المَوْبوئين حتى قبل أن يأتي "كوفيد-١٩"، لن تجدي الكمامة والمفتاح ما زال مَوْبُوءًا في غياهب النسيان".

قارئة وقارئة!

قارئة وقارئة!

على مشارف المساء الممطر، عاد مُرهَقًا من عمله، نَضا ثوبَه، وألقى بالجزمة والجوارب بعيدة عنه، ولج إلى غرفته الصاخبة بالموسيقى والمملوءة بالكتب المنداحة، فأشعل سيجارته ليطفئ لهيب الوحدة، أوقد شموعه الحمراء، وكعادته شعر بصداع يزوره، من حين إلى حين تتكرر نوبته المثقلة، تناول حبة من البنادول الأبيض، عصب على رقبته بخرقة من القماش الأخضر المبللة بالماء، وتأمل في حزن

قاتم لوحته الرمادية، ونظر في تفاصيلها المتناثرة، ثم أطفأ مصابيح غرفته، وأغمض عينيه الناعستين بعدما أوى إلى فراشه مبكرًا، وأرسل زفيرًا حبسته رِئتاه طويلًا، وهو يسأل الله أن يُنيم عنه كل شر، بضع ساعات، وهو على حاله!

***

غرق في خيوط الحياة بين غمامات السواد واشتباك الظلام وهمس الضجيج، ثم بدأ يتساءل في حيرة، هل يستمر في وساوس خياله ونشراته المفصلة؟

ثم أفزعه صوتٌ منصدعٌ من جدار غرفته، لم يُعِره اهتمامًا، كوابيس وأحلام مفزعة تزوره ليلًا، فتناهى الصوت مرة أخرى من خلف ستارته البيضاء ينادي بخفوت، ومن كوَّة صغيرة خرجت فتاة ما أمْلَحَها! أشعل إضاءة غرفته البنفسجية وارتدى ملابسه على عجل، دار كالرحى حتى تسمرت قدماه، فابتلع ريقه الذي جف من الخوف وأوشك أن يصرخ في وجهها، فأماطت لثامها ومدت يداها وأنارت غرفته بابتسامةٍ حانيةٍ امتصَّت ارتياعه، لكنها قبعت في مكانها صامتة، لا تتحرك ولا تفتح فمًا، وقد تلهفت حواسه إلى هذا العناق الذي ينتظره بشغف وشغف، فنظر إلى ساعته،

ونظرت هي أيضًا، فإذا هي تشير إلى الثالثة فجرًا فأرخى ذارعه.

لكنها تراجعت إلى الخلف قليلًا، كبحت جماح رغبتها وقالت له بصوتٍ مبحوحٍ ومتحشرج:

الاحتضان محطة تؤول إلى رحلة مؤقتة، كجرار مكسر، لا تروي العطش، إما أن أعبر معك الجسر، أو اتركني أصارع الألم، وليس بعد الاعتراف ذنب، أخشى أن أصومَ في المدن الخاوية، فلساني المنعقد يغتاله الظمأ، فقد أُصِبت بنزلة من الخذلان المترهل، لكنني أنهض مثل الصباح، أختارُ ثوبي المُزهِر بين أهلي على الرغم من الرياح، وأتساءل عن الدليل،

ولتحيَ حروفك، لكنني لا أجيد صناعة المعنى كقارئةٍ لم تبلغ الرشد، أنا بعمق الأسى أنتظر أملي كروحِ طفلة، فصدى التجارب يجثو على صدري كأنه الشبح.

ثم قال لها بنوبة شوق كأنما غشاه الإعجاب، وهو يتأمل عينيها الواسعتين وشفتيها الجوريتين:

أنا المليء بأنهر القلق، ولا زالت صافرات الصباح تدوي منذ شهور، والليل لا يموت بين أحضان العشاق، وإن تواصلت الفصول الأربعة، كان عليَّ أن أُربِّي شفتيَّ على الصمت، وأشبع قلبي من العزلة. كنت أمارس لعبة التخمين

في كل شيء، وكنت ممنوعًا من كثرة الكلام، على الرغم من أنني عبرت الجسر معك ولم أتوقف عن الغناء، وقد ألفت وحدتي كأنني أسير على جمر لا يطفئه الندى، حتى في وميض الشوق على حافات الرصيف، بين صفحات الكتب دهشة الاعتراف تؤجج الرعب في النفوس.

***

وانصرفت تقرأ روايةً بصوتٍ هامس:

في البُعد إيماءات، وفي الصمت عبرة، الليل صوتٌ من الأسى، أنا فتاة أستجير بذاتي على ذاتي، تنهداتي تختلج صدري، ولحظاتي البسيطة مفروشة بمواطئ المطر، أقاوم الظلم، أكنس عواصف العناء، تصاهرني القراءة في عالمي السريالي، مواهبي الخفية كمشكاةٍ أختبئ خلفها لا تصدرني أمام جسمي النحيل، وملامحي الغجرية مرآةٌ لليائسين، تعكس الأمل، الأرض تحتفي بضحايا الحب والحرب، أبحر في أعماقي، أرتل الهوى في موانئ الزهور، فكم من حبيب ترك! وكم من حواء تئن في المدى! ليست أنا يا آدم

المرفأ، عشقك عزلة، فاشطب دفاترك القديمة، كبرت عليك الرحلة، تهت في دروبك المخصبة، ولن يرحل السهاد في حلكة الغسق.

لا تسألوني من أنا، الحجار تخبئ الذهب، أنا فتاة تقاوم الخريف، ولا تراهن على حُب لا يشكو وعكته المخضبة ولا يشعرني بألمه. والغريب في هذه اللحظة، أنه ينتابني تقشر داخلي وتناقض عنيف، أنا مدينة لك بأغصاني، فلا تقطفني ليلُوكَني الزمن، بل اسقِني حبًّا ليكبر الحلم، احتويني كطفل أقنعه أنَّ القمر لا يسير مع نافذة السيارة، وألقِ على أوراقي تعويذةَ البقاء، وانفث فيَّ الأمل حتى أقتنع، حتى لا أذبل. في

ذلك الوقت، سأبث لك الأكسجين، وألتقيك تحت جناح الليل، حين تغرد العصافير داخل الأكواخ سأدفن رأسي في صدرك الحنون.

***

وعاد الصوت يقتحمه من جديد، أرجفه مرة أخرى تتبعه بحذر، حدد موقعه إنه صوت المذياع، وبات يستمع مشدوهًا خائفًا من هذه الأصوات، وللوهلة الأولى يستمع إلى شوق الثالثة، كانت المذيعة تقرأ بنَهَم من قصة قارئة وقارئة:

وضعت غجرية دفاترها الخضراء أمام الشاطئ، ثم تولت إلى شاطئ آخر تغسل جسمها دمعًا وألمًا، ومسحت أحمر الشفاه، وأزالت رموشها الصناعية، أطلقت لعنق شعرها الأشقر العنانَ مع أطياف المساء الهاربة، وهي تنظر إلى الشفق الأحمر الممتد خلف البحر، وخلفه تختفي حكايات وصراعات، ويغوص في أعماقه وهن الأيام، ثم انكفأت على هاتفها الأصفر لتلتقط الصور الفوتوغرافية، وتنتظِر ضيَّ القمر على مشارف الليل الأبدي، يطيش جسمها شموخًا، ولم تقُل للبحر شيئًا.

***

وقف بسيارته الفارهة على مسافةٍ ليست بالبعيدة منها، فتح نافذته المظلة، ونظر إليها نظرةً حانية، وقد تمدد اليأس في عينيه العابستين، ثم ترجل من سيارته يحمل إكليلًا من الورد ورسالةً بخط يده المتعرج، كتب فيها:

"في لحظة جدب، انبعثت فكرة الحنين، وحين ضجَّ السكون اقتحمتُ تفاصيلك المخبوءة بعبثية طاغية، ولكن ثمة نرجسية فاحَت منك، مزجت بين ثنائية التجاهل والكبرياء.

شددت الرحيل إلى الأعماق، أغويتُ فؤادي على ضفاف الليل، على بوح تقيأت حروفه، وأصبحت أبحث عن

إقامة في شعائر النسيان، كلما لاحت ذكراك توسَّلتُ إليها بإحسان مقدس في محراب لا مناصَ منه.

الحب ملاجئ الأرواح المتشابهة، وبين صفحات الروايات يظل الحب على الورق، وفي خطوطي المتعرجة أستظلُّ من حرارة الغرور".

***

ثم استلقى من أضغاثه، فقد كانت تلك هي المرة الأولى، ولم تكن أبدًا الأخيرة. وفي تعبٍ زمَّ شفتيه امتعاضًا على أرَقِه داخل صالون منزله الهادئ، ليسمع أصواتًا متهدجةً تهبط من الدور الثاني، مندهشًا، فمن سيأتي في هذه الساعة المتأخرة جدًّا لزيارته؟! تثاءب، فالجو البارد يشبه المشاعر المتبلِّدة، أغمض عينيه مسترخيًا من عناء الأيام وحظه العاثر، أحلامه المتكسرة تجدف به على ضفاف الأرق.

تقترب الخطوات منه، اللهجة ليست غريبة، نزَّ جسمه في بادئ الأمر، فإذ هي عرافة الحي، امرأة غير مألوفة، ثيابها السوداء رَثَّة، نظر إليها في حالة شرود، يواصل تفحص هذه

الإنسانة، هل هي بشر؟

ثم أومأ بإصبعه السبابة إلى خادمة المنزل، فأحضرت إليها كوبًا من القهوة الأمريكية المُرَّة المذاق، وكفَّ بصرَه عن قراءة الجريدة، فراح مُصغِيًا إلى هذه السيدة الضريرة، ولا يزال يتأملها بابتسامةٍ شاردةٍ تبعث في نفسه الأمل. تناولت السيدة فنجانها، ولم تستطِع رشفه، فأشار إلى الخادمة فأحضرت سكرًا بنيًّا، فاحتدم الصمت الموقف، ثم نطقت وهي تحدق في فنجانها: من يشبهك قريب منك، لا تفصلك عنه المسافة، الرجل في الحب يتضح منه ما يخفي جسمه، يحاور تفاصيلَ لا تصمد، والأنثى تُثقِلها خطوط السرد، تغلق

النوافذ، تتحسس الحياة من ثقب صغير في الباب، تبحث عن الأمان والدفء وتتخيل المخبوءَ من الألم.

***

ثم قاطعها ليقرأ شيئًا من الجريدة:

"احتبس الحديثُ داخلي دون حائطٍ أتكئ عليه، وما إن وجدت من يشبهني حتى أغلق أبوابه، فلماذا لم يدَعْ لي مساحةً لأتكلم؟ كومة من الجراح المفتوحة تثرثر، وكل الأصوات لا تهدأ، فمن سيضمد هذه المشاعر الهائجة؟

الوجع يطرق جسمي، وأنا حطامٌ من زجاج، فأي حقيبة ستحمله؟ أقف على الأشواك كل ليلة، فهل تصدقينني إن أخبرتك؟

دسَستُ في ذاكرتي نبوءة الغياب، وحين اختفت كانت تترقب حضوري، ولا شيء سواه، فعُدْتُ مستغفرًا عن خطايا الحنين، وحين بدأ قلبي يتعافى، نكأتُ الشوق مرة أخرى، وأقسمت على نفسي ألا أخرجها من ذاكرتي، فهل أنا أقف في المكان الخطأ؟

سألقي عليها السلام كل ليلةٍ في قلبي حتى يطمئن، وسأخبر الطبيب إن زرتُه فربما من علاج يستأصل هذا

الحب، يسكن الشوق، وإن أخطأ جهاز قراءة تخطيط القلب، فتشخيص الثالث قد يحل!".

نظر إلى ساعته، فإذا هي الثالثة فجرًا، ولكن التعوُّد كالزمن قد تكبر لحظاته، وقد تموت سنين، وبمرور الوقت يتعافى المرء. تأمل هاتفه المحمول، ليتبادل معها الصمت.

ارتخى جسمه وخف عنه التوتر، فأغمض عينيه ليستريح، وقد كف الدوار عن رأسه، فدب في أذنه همسٌ خافت:

"أنت وأنا ومن بعدنا الطوفان. لا تخف، لا تخف. إلى حيث تقودنا الأيام، إلى حيث نكون، لا بد أن نقف. نحن في طريقنا إلى الفردوس سنمر على الصراط، رائحة الكادي

والفل تخترق خياشيمنا. لننظر إلى السماء في طريقنا إلى الشاطئ، لا داعي إلى الماء".

(مذكرات قارئة مجهولة

الثلاثاء ٣١/ ١٢/ ٢٠١٩)

مربع أخير!

مربع أخير!

حين تصبح السعادة المؤقتة كَأرملةٍ سائحةٍ تهدهد سلال الجوع كلّ ليلةٍ لإطعام أطفالها تمهيدًا لحزنٍ مزمنٍ تطل الذاكرة عليه بنبض الحروف، تغني له الكلمات في مدن الأبجدية، الحب مثل الصحة يجلب السلوى للعاشقين.

وقبل أن يخطّ قلمه بأيّ كلمةٍ في عام ٢٠٢٠م، كتب لها: (أنا أحبك...).

فارتفع سقف الخوف، انغلقت سريعًا لتمنع حركة

حروفه، احمر خداها القطنيان، صوّر لها الخيالُ مأساةً مفزعةً دون أن تكترثَ لتراجيديا الواقع الضخمة.

كانت تعاني من صخبٍ مزمنٍ، هجرت الأحلام، فَعِشْق الصبا انقرض من قاموسها، والوعود تلاشت مع أوراق الخريف.

بدا الأمر لها بشعًا؛ ربما لا يبالي بمذاق الوحدة، وتسارعت نبضات قلبها، ففوجئ لها بأنه يحلق على الورق في مدارات قريبة، تناست أن الحب فضيلة غائبة، فتركته يعبث لعلّه يدحض نفسه بنفسه، فمزاجه الرائق سيدفع ثمنَه خيالُه الزائف، وعليه أن يرمم جولاته الصادمة.

كانت تمسك في يدها ختم الخروج، وكان هو مُرخيًا ذراعيه، مريحًا باله، مغيبًا عن الهيام، منكبًّا على عالمه السيئ، معزولًا عن الهوى.

تحيد جوارحه عن الاتصال بقلبه الكافر، يكافح من أجل النجاة، يمضي في صمتٍ مؤلمٍ على الرغم من ضوضاء المستقبل، يجتهد في طلب الطموح، يقتنص أجزاء الثواني لالتقاط أنفاسه بعيدًا عن اللحظات الأليمة، يقترب من لغم، ينتصب في مكانه، ينصت قبل الانفجار، هناك من يترقب جنازته بسكون، وينتظر سقوطه في عِداد الأموات، وبهدوءٍ يسيرُ الأمل في المكان الخطأ ليرحل الضوء في نهاية المربع.

كانت الرحلة ممتعة، والكل مشغول بنفسه على الرغم من الزحام، كان كل شيء تحت السيطرة إلا سلطان القلوب، فقد نفدت ذبذباتها مبكرًا، وكل ليلة يتصاعد الدخان حتى اجتثت النار جذور الصبر، وتسللت إلى رئتيه أنفاسها الطبيعية، وراح ضحية الصدف، وما إن انتهت الرحلة حتى تثاقل بصره، وبدأ يشعر بالشتات، يتجرع الشجن، يحاول اقتناص ذكريات لم يعِشها من الأساس، فأدرك لعنة الفراق، وميلاد حب جديد، بعد كل هذا ليس مبهجًا أن يصبح صديقًا للصيدلي لشراء أقراص البنادول بين حين وآخر.

***

كان يداوم على البعد وعدم المبالاة، إذ كان يدرك جيدًا تكدس الذكريات في حضن العجائز، حتى في الصباح تذبل الأحلام السماوية، على الرغم من الهواء تسقط على الأرض لتتلقفها عوامل الزمن، فيصيبها التلوث والتجاعيد، حتى اللغة تضيق على الرغم من سهولة التعبير، وهذا مناسب له، فقد تقرأ حواء صمته، على الرغم من الخيط الرمادي الممدود من فوهة البركان قد ينفتح الباب دون ترتيب، وينعم الجلد بروائح المسك، وتخضب الكفوف البيضاء. فلماذا الاغتراب والعيش في أزمة الشك، وآدم يعيد الابتسامات المسروقة؟

ما زالت الدروب موبوءة، والذاكرة سيئة في العدل، كان يبحث عن نفسه لعله يجد الاهتمام ذاته، يحاول التغلب على حدسه لكنه ضبطته متلبسًا بمراقبتهم والبحث عن تفاصيلهم، ولكنه لم يحسب أبدًا أنه سيعيش مهددًا بفقد من يحب، وجد الخيارات كلها تقترب من الهامش، فصارت أفكاره قلقة، حقيبته على ظهره ثقيلة، لحظاته مهترئة ومشاعره مشوشة.

***

في هذا السفر وقف كثيرًا أمام عتباته، وركن عواطفه على رصيف الذكريات، ركض وراء عقله اليقظ، وإلى أي مدى سيبقى يتابع ويقترب من قلوبٍ لا يعرفها، وسلوك يصعب قراءته، واهتمام لم يرصده حتى اللحظة!

عزل ذهنه كما يفعل الناس للوقاية من فيروس كورونا، وعلى الرغم من هذا فما زالت تفاحة آدم محشورة في حلقه، يخاف وتخاف الحب يتسع ثم يضيق، يسقط كل شيء بغتة، فرضية الحدس تساوي كل شيء، تكوِّر الذكرى ككرة الثلج، وعندما تشرق الشمس يصبح الحب سفرًا منسيًّا في الرمل، ويبدو أن الشعور بالآخر يمثل احتمالًا لنقل الخوف والتوحد، كذلك معايير العدل أنانية وغير واضحة، ولم تضع

أساستها، ويخشى أن يكون قد استنفد رصيد محاولاته، فالصفر على اثنين عدلٌ، أصبح على المحكّ ولا يريد التورط أكثر، تخلصه الكتابة من مآزق الشوق، لكن القراءة مرة أخرى ترسي قواعدَ جديدةً معقدةً في أعماقه، فيعود من جديدٍ لقياس شوقه الأخير أمام مصيرٍ مجهول.

هناك قلوبٌ تبحث عن تفسيرٍ خارجي، لا تصدق الكلمات، تطبعت بنرجسيات صغيرة فضلت الهجرة إلى عوالم داخلية، والانكباب على قراءة الكتب بحثًا عن صديقٍ لا يخون، وللقراءة أثرٌ تُحييه وإن أبكت صاحبه، وتشرح بسهولة ما كان غامضًا في البداية.

حواء القارئة تتفتح إلى هذا العالم كناسك مبجل، وكفرض مقدس، تسافر من عالم إلى آخر دون وعثاء، تلون الصفحات الجميلة، وربما ترصدها بعدستها الضيقة، وتعيش مع أبطالها دون أن تغادرهم، تحتضنهم تحت تأثير القراءة كنخلة، وتحدثهم كنحلة.

قالت له بصوت متهدج:

"دأبت على غير هدفي، لماذا تستجدي حناني كل يوم ومصابيحي لا تتجاوز مساحة غرفتي؟ حتى عطري إن خرق شباك نافذتي فزجاجه ثقيل، وربما يجرح، وفي طريقي إليك لا أملك القرار، حاول أن تلتئم وتنهض بسرعة، ولا تفقد

تميزك، ثم تكتشف في لحظةٍ ما ملامحي الحائرة سكارى تتخبط، ويدي تربت على كتفك ومشاعري تتدفق، وأنت تقرأ في تقاطعات خطوط كفك اليسرى فاستمع إلى دوي اليمنى، وتأمل خط القدر.

خيباتي المرتبطة بالغياب تتواطأ مع مغارة خيالك لا تعاتبني طيلة الطريق، اسمح لي بالخروج من المربع، فجسدي يترجرج فلا أستطيع التنفس، دعنا نتكئ في فضاء الطابور للوصول إلى لذة مشروعة، ولا تقف على سراب الذكريات لنواصل العيش بقواعد الفعل".

***

حتى هو قارئ كفوف متمرس يستنطق الإشارات، هذا ما علمته إياه جدته منذ سن السابعة، وورثته صنعتها ليشقى في كبد، وقضى عمره بين الجبال والسهول ثم زفر طويلًا وقال لها:

"لا أذكر أنني أحببتك ولماذا أحببتك، لا أعرف سر هذا التناقض! وقد بدأت سروحي معك مبكرًا، وأذكر بدقةٍ التفاصيل وليس الرماد وحده من يؤرقني، حتى الصباح يزهر بأشواقه ويضعها في سكة الليل، ولم أُفضِ لكِ أمام زجاج الكوثر، ولم ألتفتْ ذات يوم، وما يلبث سوى أن يستمع بشغف لاختلاجاتك المهتزة وإيماءاتك الغجرية، وهو عائد كل مساء يحدق في خطوط كفه الصغيرة وتضاريسها الغائمة،

فكانت ضحكاتك تتنامى في قلبه، تحدثه في الليل، تصنع لحظاته في المقاهي، وربما ضربتك صراحته في مقتل، فانثالت الأسئلة تتخبط في أعماقك الصوفية".

كتم كل شيءٍ لبضعة شهور وظل يمرض ويتعافى، ويمسك بمصفاة من ورق، ويبدأ في كشف الجمل القصيرة، فتأفف من حاله كثيرًا وأعرض عن الالتصاق بك، وغاب وعاد، وما زالت خطوط كفّه مبهمة تمامًا، واكتسى خوفًا ووحشة على أبواب الزمن تنصل من التردد الطارق، وقف في منتصف الطريق، استنطق معاني اسمك لكنّ خطًّا واحدًا في كفه اليسرى ظل يحذره من المكاشفة.

وقبل أن يغلق ستائره ويتطلع إلى العتمة، امتلأ قلبه بعبء الشوق، وتأخر الضوء الأخضر منك، واقترب من مغادرة المربع، ولم يصنع في حياته غير أن يبث في قلوب العذارى ضوءًا أصفرَ تتزاحم حوله الفراشات وحتى الناموس، فاستعاذ من ذكرياته المحببة، هكذا حدث نفسه لتضميد الحنين الطارئ!

فمن سيقرأ بؤس قلبه؟ ومن سيرتل للصغار أناشيد الأحلام من كف عرافة صوتها مرعب؟ بات يمضي بلا وجهة معروفة، تفوح آهات عطره من مقصلة الجراح، فكل المشاهد في ربوعك منذرة بأرضٍ تتلألأ عزفًا، ومطارح أقدامه العاشقة تقوده إلى أوطانك المؤصدة.

حطب!

حطب!

لأول مرة، وكل مرة يتكور ثامر وجعًا لساعات وساعات، جلها باهتة تداهمه لحظة طارئة، يستكين على هاتفه المحمول، يستقر حاله، ثم يكبت مشاعره قبل أن تتدفق كلماته، وتندفع كشظايا خامدة، كأنما يوجد شيء جديد، تأكد بأنه لا يحلم وأنَّ ما حدث ربما يكون واقعًا أم خرافة.

قال في تلك الليلة:

- أي ليلة؟ لم يجمعنا القدر ذات يوم، تواصلنا وفي حدود العمل ليس إلا.

وفي المساء، دخل ثامر غرفة نومه، ولا شيء سوى حب يتسلل كإشارة ضوئية داخل طائرة، فمن رفيق الرحلة؟

عاد يتسلل بغلظة من الشرفة، لقد وقع بكل عنف واجتاز الباب هذه المرة.

تم هذا دون لحظة تأمل، فهل كان مريضًا؟ وأشاح بيده عن بطانيته. المسألة إذًا عالقة بـ "ندى"! ومن هنا بدأ ثامر يمارس فعل التردد والاختباء، فضل الصمت، تربص به الشوق، زاحم القمر والنجوم في السهر، وقد استحالت روحه كبعوضة تبحث عن حرارة جسدها حتى لا يبقى أسيرًا في مدن الذاكرة السوداء.

صباح هادئ على مرأى الشمس أسدلت على أطرافه أَشِعَّة حارقة، كشيء يشبه الحب، كانت الأيام الماضية باهتة الألوان، تولول على ثامر رغبة جامحة تدفعه إلى الاعتراف إلى ندى.

على الدرج، في مفترق الطرق إلى قسميهما في العمل، استدار ثامر من الإعجاب بجرأة لم يعتدها جفف التغاضي لندى، وضع نظارته الشمسية في جيبه العلوي ويمسك شنطته البنية بيده اليسرى، وبطوله الفارع استعاذ من الإفصاح عن شجونه، كان يعرف ما يعاني منه، سطت على عالمه بثقافتها الساحرة توشيه بهفهفتها المرحة من بعيد من بعيد، تخبئ خلفها ترانيم هاربة، وهو يسير خلفها. راجع نفسه كثيرًا،

وفجأة ارتاعت ندى من قطة سوداء مرت بين قدميها حتى سقطت عباءتها من فوق كتفها، برزت ملامحها القروية النفاثة، كعشتار مثقلة بالأنوثة، ضحكاتها المتوجسة تعكس صوتها الدافئ كضماد، شفتاها المنفوختان كالجوري معتقة الخمر، نفر صدرها، برز نهداها أكثر، حاولت ارتداء عباءتها سريعًا. يا للتضاريس الطبيعية! عالجت الموقف بعدما تأمل ثامر وتأمل كنظرة مجانية، وما كاد يفاتحها بالحديث لولا هذا الموقف!

قال لها وهو يتعمد الخطأ:

- اشتقت إلى شخصٍ أود أن أشعره منذ مُدة...

وفي نفسه أحس بتقزز، وفي عز الصباح ربما يعكر مزاجها، وربما نظرت بتفاهة إلى سؤاله المختلس، لكنه محور اهتمامه!

قالت بلهجة لا تعنيها:

- وماذا يمنعك؟

يبدو أن السؤال نفد، استفزها فعقدت ملامحها الغجرية، وتبدو حركاتها مستحيلة.

قال بوضوح وهو يخشى ردة فعلها:

- يتسرب الوقت إليك يا ندى، ما كدت ألتفت إليك قط، أو حتى أحلم بأشياء أخرى. شيءٌ خاص أكتمه، سرٌّ أود أن

أفشيه.

انتظر وقال في سره وعقارب الدقائق تدور على ساعته اليدوية: "لا بد أنه يوجد خطأ ما!".

خفض صوته، وبحديث لا يخدش الحياء يبحث عن اتفاق معها، وهمسه المتوافق ينسجم ويخفت شيئًا فشيئًا، تحول حديثه إلى إشارات وألغاز، أحس باقتراب التفاهم.

فجأة شعر بغربة، لا مكان لها، لم يطمئن لسكوتها المفاجئ، روحه المختنقة ترفرف، مضت ساعة والصمت سيد الموقف.

لاحظ أنها متأججة، كتمت غيظها ونطقت بلهجة أقرب

إلى التأدب والتعجب:

- على أي أساس تقول هذا؟ ألسنا زملاء عمل لا أكثر؟!

تلكأ في الرد عليها طويلًا، ومع هذا رضخ للأمر وازداد اضطرابه، تملكه ارتباك غير قليل، وأصبح يكسوه مزيج من التردد والحيرة، خجل من عينيها اليمامتين، أدرك أن فزع الشوق حقيقة، تأوه من رئتين أنهكهما السكون، وقد استبد بها داء العشق، وذاكرة لوثها الخيال، فلم يعد مضجعه آمنًا، وراح يسرد بعض ما يكنّه وما كان يلهو به كل ليلة على الورق، حتى أدرك أن لحظات الوجع تتنامى.

***

أخذ يتردد، وبداخله لعبة الحدس ثم أوقف شروده، وعاد إلى واقعه غير أن الشوق ظل معلقًا إليها كقناديل التوت.

بعد دقائق، روحه التائهة المشتعلة بالقلق، حروفه المرصوفة أضحت في مشيئة الضياع، شوقه المتأجج في حينها لم يسعف موقفه العاطفي بالحديث معها.

فتحت جحيم الأسئلة، زادت الحطب على النار، أصاب حواسه عطبٌ مؤقت، كان صادقًا معها، فلم تغوِه الحروف الهادرة كل ليلة، أعاد سريعًا ترتيب ذاكرته، اعتدل في حديثه، سار حائرًا إلى مكتبه في الدور الثاني، مسح رسائله عن حزن دفين، وبات في قلق لا نهاية له.

***

وبعد شهرٍ قرر السفر على مضض كَحَلٍّ بديل عن الهروب أول الأمر، ثم أرجأ البوح صابرًا، كان يخشى ردة الفعل، ثم عاد فاختار الترويض لقلبه والوصول إلى عزاء لا أكثر، فقد ترك الحوار والمناكفة، لكنها كانت تفضل التملص أكثر من السكوت في هذا الموقف.

في ذلك الوقت، كانت ندى تراقب من بعيد، من بعيد جدًّا، لا تزال تتماوج على بساط من نار، يتغامز جسدها، تبحث عن مخرج، تتأمل معانيه، تفتش عن سبب لكل هذا، تمنت ألا يطول ذلك، تحاملت على نفسها، ثم توارت في مغبة الغياب، ولكن التعود على ثامر كالزجاج، بوحه الآثم غالبًا ما يصحبها نوبات خافقة.

***

كان يجب عليه أن يكف عن الركض، مارس هوايته دون هوادة، تشبث بالأمل كثيرًا، كسر خجله، لا يكف عن التلميح إليها، انتشى فجأة يلتهث وراء حنانها، ينشد أحلامها، فلم تنظر إليه، حاولت الخلاص حتى أظلم كل شيء!

ثم أيقنت بدقة مع ذاتها تتساءل عن كل هذا؟

فجأة تجد من ثقافتها كأنثى قارئة تجيد مهارة التحاور مَخرجًا لها، وفجأة تبلغ أقصى مدى التفكير تتوحد وتحدث نفسها عن سرٍّ لا تعلمه فتلح برغبة الرحيل!

لم تعد تستطيع المواجهة وربما المجازفة، وباتت تتلوى في لحظة مبعثرة، تسير مشاعرها مرصوصة بلا نظام.

***

قرر ثامر مع نفسه أن يبدأ لعبة التوقف، في محاولة لمدارة هذا الشوق الجاذب والهادر والمكتسح، يرق ويتبدد، قلبه يتأرجح، لا بد من سدّ منابعه، فمنافذ الحديث معها تتراجع، وذكريات الماضي تتماهى مع الحاضر، ونار مفتوحة تقود جسمه إلى رغبته الأخيرة.

وبعد أن رفضت حكايته الأولى، أوقف صراخ كلماته لكنه لم يستعِد أنفاسه، ارتبط كل شيء بها، كأنها عقارب الزمن.

وبعدما مرت ثلاثة شهور انتظرها، لكن العناد والغرور والكبرياء خيموا عليها، وباتت تحرق بصمتٍ حطب الشوق.

ثم كتب ثامر لها بعد صمتٍ طويلٍ بخط يده معبراً عن

حالته:

"الأرواح المندمجة لا تتكرر كالمدن الحديثة متشابهة، ولكل منها حكاية وتفاصيل، هي ندى، لها بصمتها وحضنها المتفرد وخصرها المنصهر، تهطل مطرًا فتغسل أحزان غيرها، تداعب الريح بخصلات شعرها، فيهب شذاها الآسر، تزهر وتزهر غطاءها دافئًا، وعطاءها معتقًا. شفتاها بنكهة الكرز، ولسانها كما الرمان، ولا تفضي سوى إلى ذاتٍ تشدها تبادلها ثيمة الاهتمام، فالحصان المُسرَج يفخر بنفسه، على الرغم من الوجع والمرارة فإنها تفتح ذراعها، حتى في انكسارها تنهر كبرياءها".

***

كلما تناهت إلى ثامر ليالي الشوق، وقد طوى الظلام القرية، والسكون حديث الأشجار، يتواطأ الإحساس مع ندى كل ليلة، على الرغم من الصمت تفرغ وجعها بحرقة فوق إضاءة هاتفها، تشير الساعة إلى الواحدة بعد منتصف الليل، يتحول كامل المشهد إلى مسرح صاخب يتمايل بين الاحتمالات، فوضى الصراخ، والصمت المرتل خلفه رغوة الحب.

وفي اللحظة التي أعلن ثامر فيها لنفسه الخلود إلى الراحة ودنا من الرحيل، تبعثرت خطاياه فتسرب إليه النسيان رويدًا رويدًا، ولم يزحف كثيرًا حتى عادت كفراشة لتثبت أنها على قيد الحياة، فتوارت من مأتم النرجسية لتشاطره ومضة

الأمل، ولم تكن تعرف أنه اندفع كالمجنون، أهدر صحته في فضاء انبلج منه الرصاص يستغرق طوله على عرضه في ألم وخيال.

تراكمت في ذهن ثامر أحلامٌ بددت واقعه، وبات محرومًا من لحظاته السعيدة وطقوسه اليومية، دخل في عالمٍ افتراضيٍّ يسترجع خصر الذكريات، يكتب ثم يطوي الورق، تعود به الذاكرة إلى ستة شهور كانت لياليه كحقول التفاح.

***

ومع مرور الأيام، أسدت له خدمة ثمينة، نظر إليها وقد غص كثيرًا، سكت وابتلع الحديث، اعتبرها في نفسه دينًا ليومٍ ما، شكرها بسطحية كغريب وانتهى الأمر.

***

في آخر المساء، تفجرت ندى ترمق شيئًا ما، لم يذعن ثامر للحدث، خدره الزمن وتوقف مع نفسه يسأل ويسأل.

ارتجف قلبه، فضَّل العزوف عنها فقواه بدأت تخور، وكانت الأيام تمضي ثقالًا، هذا جسده وهذا حظه قد تدحرج على ضفة الوادي، آمن به وسلم نفسه للواقع المرير واعترف بأنه لا يملك ما يضحي به سوى حروفٍ صنع منها تمثالًا من

طين، فَصَوْتها الشجي بدأ ينطفئ داخله، وحين تفتقت جراحه، بدأ يشعر بثقله عليها، فانطوى إلى العزلة.

***

كان هذا آخر ما كتبه ثامر في مفكرته الصغيرة، فقد باتت لياليها تبرق في الذاكرة الواهنة، ثبات من نوع آخر يعيشه، روحه توشك أن تنقبض وتتشنج، صرخة يعرفها تمامًا، إرادة غير واعية، فلماذا هذا الحب تحديدًا؟

تجربته تتعاظم، تتفجر، أصبح وحشًا مع ذاته الوديعة، الأدلة حوله تتلاشى كغربان، جسمه النحيل في مأساةٍ مخضبة. تمضي الشهور، وما زال الوضع مشحونًا ملبدًا

باستحالة التفاهم، ومن حين إلى حين تبدو المواقف مرعبة وربما غامضة، وذات يوم قد يأفل هذا الشوق!

وربما يلوح في الأفق فجر أبيض.

وقّع اعترافه الأخير في مفكرته الرمادية "إني هزمت".

ثامر، ١/ ٧/ ٢٠٢٠

صفحتان!

صفحتان!

كان ما كان عند اقترب الفجر، يفتش في سجل هاتفه، يجد رقمًا غاب عنه منذ مدة، يتأهب للذهاب إلى المقهى، قلبه ينذر بخوفٍ غادِر، ينشط ويلعب حتى أفلت من تردده واشتدت جرأته وراح يتخيل أحداثًا كثيرة، تنهد نهدة عميقة، لكنه استمهل مفاتحتها في موضوع إعجابه وانجذابه، يمر بالأزقة، تومض ذاكرته، يحاول الفرار عما يتربص به من قلق يساوره منذ مدة، يخشى المجهول، يتبارى مع حدسه، يناور المجازات، يلوذ عن الحقيقة، يشعر بخنجر في خاصرته ونغزات متناثرة في جسمه تشوبها بقع مخضبة. ثم غدا إلى

زاويته في المقهى، يظهر مكانه محجوزًا، تمر ساعة فيخرج، يعود، يجلس، يقف، تأتيه مكالمة خاصة، وقد بدا عليه الوجل، تنتابه حالة من التلعثم، يتجول في فضائها الافتراضي بـ"الآيباد"، ثم انكب على "الواتساب" وقد بدا عليه الشحوب وهو يرتدي نظارته السوداء: يا ويلي يا... ما عدت قادرًا على التركيز في أشياء كثيرة، فأخشى ما أخشاه أن تغلقي كل شبابيك الهوى أمام محاولاتي المجهضة، ورغباتك تتمدد على بساط نهر عذوبتي المتربة.

***

كنا هناك منذ أشهر، وما زلتُ أسمع همسك الصاخب، كل ليلة أبحث عن وجهي القديم من كوة خارج الجدران، الأبواب مؤصدة والحياة مكتظة، أقترب بسيارتي ثم أخطو خطوات، أرمي حقائبي، أنثر ما تبقى من ذكرى، أبحث دون جدوى على استعادة روحي المرهقة بالأسى، أودع المكان باحثًا عن ظلك.

لا يتوقف همسك على الرغم من فحيحه كأفعى، أتوسل إلى الديار، أبحث عن شيء حتى أمرر لك بهتاف بحركة، لكن صوتي الواهن يموت في الفراغ، وكثيرًا ما فكرت برحيل متكافئ، لكن حياتي تتسع نحوك والخطوات بدأت تستطيل والطريق محاط بالسياج.

ينتصب غرورك المتنامي، يصغر في عينيك، الوقت أزف، شهقاتي المُكمَّمة بالوجع صامدة وشامخة، وكلما تلهفت على استمطار مشاعرك تبددت أدلتي، وقد أثرثر على ورقي وذات يوم سأرفع رأسي وأستفرغ عليه كسحابة صيف عدت في غير موعدها، فكل يوم أبحث عن ثقب لأطرد طاقتي السلبية، هكذا يتبدد الحلم حين تشاطره العزلة، فالباب المغلق معرض للصدأ، وما زال موعد الرعشة الكبرى مؤجل، انظري إلى نفسك في المرآة، فالنجوم شامات السماء وأنتِ شامتي.

ثم أجابته بحنق شديد:

- ماذا تود أن تفعل يا...؟

تتردد أكثر وأكثر في تعاسة خفية، كنا رفاق رحلة ليس إلا، وقد بدر منك ما بدر، وقد مضى عليه وقت طويل، ولن أرجع خطوةً واحدةً عن قراري، كلامك الطويل لا معنى له.

قال بحدة:

- قلت ما قصدت قوله، وأنتِ خير من يفهم.

قالت بتوتر شديد:

- أنا لم يكن هذا هدفي، أنا لا أفهم ولكن مصدومة من

مشاعرك السيالة، فماذا ستفعل وقد أعزف عنك وعليك أن تغطي ذلك كله؟

ثم هرعت متعثرة في حياء وانتظار، وبات يتبادل معها أحاديثَ مألوفةً لا تخص مشاعره المرهفة، وهو غارق في تأملاته البعيدة، وقد أصبح حضورها في يومه من الثوابت التي اعتاد أن يزاولها.

المقهى الذي يطل على البحر وسط المدينة، يمر عليه بين حين وآخر قبل أن ينعطف مع الإشارة يمينًا، هناك كان يسمع ضحكاتها الصاخبة قبل تسعة أشهر، يرمي شماغه الأحمر من على رأسه بعد عناء ست ساعات، يطلق زفيرًا

حارًّا، تجوب نظاراته المتفحصة المكان، وأمامه حزمة من الورق والأقلام الملونة، يرتفع صوتها في تناغم بديع، يمزج همسها بين روعة الاحتشام وصدى الإغراء، يعلو وجهه الخمري حياءٌ متوجسٌ من واقع جديد، أحاديثها الباسمة ينفذ معها من حياته الضاغطة، أدى قسمه الخاص وبات رقيب ذاته، ومع سيل رغباته يكبح اندفاعه بالرحيل إلى الأعماق، يبرد فنجان قهوته وهو مبحر في زرقة أحلامه، يشعر بدقات تتصاعد عند درجات السلم، يحس بأن قدميه لا تحملانه، لا يتصور أن يطفئ النور، قرأها كأميرة منحوتة أحبها ولم يكن مخطئًا، لكن القرار يرجع إليها.

***

تبدو مألوفة له، يراوده شعور الارتباط بها، تنهد للمرة الثانية، وشفتاه تهمهمان بعبارات غير مفهومة، يُرفَع في تلك اللحظة أذان العشاء ليتوجه برأسه إلى السماء بأن يريح اللهُ قلبَه المكلوم، يؤدي صلاته، يتابع الطريق في ذهولٍ قبل أن ينفض قلقه وتنهض أشواقه في قوة، لا يصمد أمامها، ليكتشف صعوبة الوصول إليها على الرغم من أنوثتها المتفتحة وثقتها المطمئنة.

***

يسير ويسير وسط الأضواء المتلألئة بسيارته، يستذكر التفاصيل التي لم تتجاوز أسوار زنزانته كلها، يحاول جاهدًا من خلالها أن يلتقط عبيرها فيما تنظر هي إلى الحياة كبستان، تبتسم، تتوسل، تضحك، تتشاجر، تثرثر، تشعر بنشوة النصر.

***

يسند ظهره في آخر اليوم على الحائط بعد عناء ست عشرة ساعة، يخرج هاتفه المحمول، تجاهل عشرات المكالمات والرسائل، يعتذر أحيانًا لانشغاله من أسرته وزملائه، ينظر باستعطاف إلى ساعة الحائط التي تواجه فراشه، كم يأمل أن يغط في سبات عميق؛ يرجو أن يغيب عن الضجيج الخارجي،

وما يلبث بضع دقائق حتى يتلقى اتصالات المقربين يناشدونه لزيارتهم وربما قضاء غرضٍ عابرٍ، يتعلل تارة بعمله، يتحمل كثيرًا من الضغوط، يستحم، يضع رأسه على وسادته، يمزقه صوته الداخلي القاتل الذي يحيط به، يفتح عينيه المجهدتين، ومنذ أن انقطعت أخبارها، توقفت الساعة عند الواحدة صباحًا، يجثم فوق صدره الشعور بالوحدة، لا شيء سوى السكون القاتل، لا أثر لوجودها سوى في الذاكرة المزعجة، بدت حياته كئيبة، على الرغم من حضورها على الهامش بين حين وآخر، وصار ينتظرها على مضض ليشعر حواسه بالحياة. أعماقه تصرخ، تئن، تبحث عن صورة، عن ابتسامة باهتة، عن مشاجرة يعقبها اعتذار واحتضان احترازًا

من أوراق الخريف.

يأكل الأرق عينيه، يقوم مُغمِضًا، يبتسم في شحوب عندما يمرق طيفها، يدرك غنجها وجسدها الممشوق بعد أضغاثه المتكررة، اندفع يفتعل الحجج ويتغابى ليمكث معها أكثر وقتٍ، ويتعمد أن يلتصق بها، تراوده في خياله، تناهت إلى قلبه أشواق الثالثة فجرًا، صوت خافت يتسرب من مكان مجهول، تبدو نافذته مفتوحة، ينظر عبرها فيبتلعه ظلام موحش، يضيء شمعته بصمت، يمعن في أيامه الماضية، ينبثق الأمل من الظلام، يسمع مواء القطط، رائحة شواء يضيق صدره، يزكم أنفه من الجوع، يشعر برغبته في الكتابة، يدون خواطره.

ومنذ أن طرق بابها وروائح المسك والبخور تفوح من نافذتها، تبدلت اقتباساتها من أحاديث النسيب إلى اقتباسات المحافظة على الآيات والأحاديث والحكم.

ينصرف بصره، يتطلع إلى السماء، يدرك أنها فتاة مناسبة، يتردد طيفها كالأمواج المتلاطمة، ينتظر أن تنسجم معه حتى لا يدفعه غرورها النرجسي إلى المغادرة الباردة، وبات يحلم بأن تندمج معه كصفحتين متقابلتين، هي ترسم وهو يلون، هو يقرأ وهي تسمع.

سُمْرَة الحَجَل

سُمْرَة الحَجَل

تمشط عالمه الافتراضي كفرض؛ تبحث، تجول، تغرد كغجرية لها سُمْرَة الحَجَل، وقد نأت ببعض كبريائها، لكنها لم تبتعد، ومن غضبٍ محمومٍ يندلع إلى داخلها يتسارع إيقاعه، لا تدري كيف تساوره، وفي مشهدها الرمادي أتت إشراقة شمسها. تتنحى برفق، تقترب بيُسر، ولا إشارة تدل عليها.

يتراكم وجعه كلما مر من أمكنتها العطرية، تكاد تنفلق ساعات انتظاره، وقد يغير شريحة هاتفه حتى يتخلص من

جاذبيتها الجائرة، فلم تعد أحداث الأمس تشغله حين مارست نرجسيتها السوداء، تلك النرجسية عمرت في مدائن اللغة، شيَّع جثمانها الورق أمام حبر تضاءلت قنادله بسرد الأسئلة.

لا شيء يبعث على إحساسه بالحياة، على طاولته زهور بلاستيكية قد ذبل بعضها، تقِل أوراقها الخضراء يومًا بعد يوم، انطفأ بريقه في آخر النفق، ثم تسرب شعاع معاركها الطاحنة. استمرت عدة شهور، ولم يفزعها اختفاؤه المعتاد، فما كان من ذلك إلا أن زاد من لهفته يطلب اللجوء، وقد أغراها وجعه على التمرد، ومرت من الأيام قدر ما مرت، وكلما استكان إلى صوتٍ داخله غدَت أشواقه كخرم إبرة

تعود مرهفة، تنتشله من مستنقع بؤسه، لتحاصره ببصيص الأمل متقلبةً على جمر الصمت.

***

حرَّضها اعترافه الطائش على الرتابة، أخفضت حركاتها الطفولية، يمضي الليل متوشحًا نزيف المجاز، في ركنه الضيق يمتشق العشق على صفير العصافير، كانت الكلمات تخرج من فمه نغمًا ساحرًا على إيقاع الفجر، رأت فيه ملاذًا آمنًا وحضنًا صادقًا، ومع صرخة الغروب تنتفض عذرية المشاعر، يحلم بالاحتواء المتجرد من شرفتها، سئم من فوضى الانتظار، وسط هذه الأجواء أجهضت ولادة

القلوب، صنعت سياجًا في أحداق الأيام وأضحت في حصار الذات تداهن عودته من فراغٍ كبيرٍ لا يعلمه سواه.

***

ربت اليأس على كتفه، وأرمدت شفتاها عطشًا، وأرقت عيناها نعاسًا، وربما ارتعشت تحت الماء من حرارة جسمها، وظلت تلوح للشمس بنصفها المغطى لتغزل خيوط الكبرياء دون قصد قاطعةً تذاكرَ الرحيل. وعلى ضفاف الوجع جعلته يلهث وراءها في ماراثون لا ينتهي، وحتى الضوء الذي ترامى من بعيد ظللته بلثامها الأبيض، كلما امتد إلى الحياة أعلنت غفوتها هاربة من آهات ليلِه الثائر، وعلى الرغم من حزنه

يصنعُ الحلوى، فما أوسع الحلم فوق عشب الذاكرة!

ستدور الفصول كلها، سينزف شوكه وردًا، سينهض من تعثره الأرعن، سيعود من خطيئة الهوى كلما تعرَّت أعذارها الرمادية وأثقلتها حدائق العزلة وأفزعتها مطاردة المرايا.

كلما مر بالمقبرة سيرى براءة الأشياء، سيحمل رحلته في ذاكرته الصفراء، سيعزي جسمه النحيل في حلمه المتحرك، وعند حلول الخريف الحب يكشف الوجوه، وسيغسل انتظاره من حنين خضب روحه الطاهرة.

الكاتب في سطور

خالد محزري

- مواليد ١٩٨٧ م بجازان - المملكة العربية السعودية.

- بكالوريوس لغة عربية (معلم).

- كاتب إبداعي: يكتب القصة القصيرة وقصيدة النثر والمقالة الصحافية.

- حصل على العديد من الدورات التدريبية في عدة مجالات ثقافية واجتماعية ورياضية وإعلامية، كذلك كرم في العديد من المناسبات المتنوعة.

صدر له:

- خطوط الطين نصوص نثرية ٢٠١٨.
- عصفور الظل مجموعة قصصية ٢٠١٩.
- طوق الرماد نصوص شعرية ٢٠٢٠.
- سمرة الحجل مجموعة قصصية ٢٠٢٠.